الفصل الثالث

"طريق الحج العراقى"

obeikandl.com

الرحلات البرية إلى مكة المكرمة :

كانت مكة مقصداً للرحالين من أرجاء العالم الإسلامى قاطبة ، وكانت الرحلات البرية إلى مكة تكاد تكون مرتبطة برحلات الحج ذات الدروب المعروفة والمدروسة والمؤمنة والتى تسلكها قوافل الحجاج من العراق ومصر والشام واليمن ، حيث تأتى رحلات الحج من العواصم ذات العلاقة والتأثير السياسى فى تاريخ مكة حينذاك ، هذا فضلاً عن أن قوافل الحج التى ترد منها كانت أكبر من تلك التى ترد من المواقع الأخرى من حيث عددها وانتظامها [٧٤] . ولكل درب من هذه الدروب كانت أيام عز ومجد بحسب الدولة المسيطرة ، ففي أيام الدولة العباسية كان الركب العراقي هو الأساس فيجتمع فيه حجاج المشرق وفارس والعراق والشام لأمانه وتوفر الخدمات كالبرك والاستراحات واستمر حتى انهارت الدولة العباسية ثم أُستخدم متقطعاً بعد ذلك وعلى نطاق ضيق .

وكان للركب اليمني قوة وأهمية أيام بني رسول حيث تأتي معه الكسوة والخيرات لأهل مكة في القرن السادس الهجري. و في أيام المماليك كان الركب المصري هو الأهم وينضم إليه حجاج المغرب وبلاد التكرور، وبعد سيطرة الدولة العثمانية على الشام ومصر والحجاز عاد المجد الى درب الحج الشامي لأنه هو الذي يسلكه حجاج الأناضول وتركيا وكبار رجال الدولة العثمانية. في القرن العاشر الهجري كان السلطان سليمان

---

74 – جلال الدين السيوطى ، حسن المحاضرة ، القاهرة ، ١٢٩٩هـ ، الجزء الثانى ، ص ٢١٩ .

هو أول السلاطين اهتماماً بسلامة الحج وله عدة انجازات منها بناء القلاع وارسال الحاميات لحراسة الحج ثم استمر العثمانيون يقومون بعمل طيب في تسهيل درب الحج الشامي في عهدهم الذهبي ، ومع الوقت ضعفت الحكومة العثمانية وتزايد اهمال الولاة لواجباتهم فتم افساد كثير من المنجزات وخربت القلاع ونقص الجنود الحماة وتلاعب الباشوات بالصرر العائدة للقبائل ورد هؤلاء لضعف دينهم بنهب الحجيج فعاد كل هذا بالوبال على ضيوف الرحمن المساكين.

طريق الحج العراقى – مكة المكرمة :

كان للحجاج القادمين من العراق إلى مكة المكرمة طريقان : طريق يبدأ: من الكوفة، وآخر من البصرة، وكان الطريق الأخير يجتاز القسم الشمالي الشرقي من شبه الجزيرة العربية عبر وادي الباطن وصحراء الدهناء والقصيم ليلتقي بعد ذلك مع طريق الكوفة مكة في ميقات (ذات عرق).

أولاً : طريق البصرة مكة المكرمة :

قد تأسست مدينة البصرة سنة ١٤هـ/٦٣٥م بعد الفتح الإسلامي للعراق وارتبطت بطريق مباشر مع مكة المكرمة ويعد هذا الطريق من الطرق المهمة في العصر الاسلامي المبكر ، ويبدو ان اهمية طريق البصرة تركزت في القرون الثلاثة الاولى للهجرة . وعن الطريق من البصرة إلى مكة شكل (٤) ، قال ابن خرداذبه : من البصرة إلى المنجشانية، ثم إلى الحُفَير، ثم إلى الرُّحَيل، ثم إلى الشَّجي، ثم إلى الخَرجاء، ثم إلى الحَفَر، ثم إلى ماويَّة، ثم إلى ذات العُشَر، ثم إلى اليَنسوعة، ثم إلى السُّمَيَنة، ثم إلى النِّباج، ثم إلى العوسجة، ثم إلى القريتين، ثم إلى رامة،

ثم إلى ضَرِيَّة، ثم إلى جديلة، ثم إلى فَلجة، ثم إلى الدَّفينة، ثم إلى قُبَا، ثم إلى مَرّان، ثم إلى وَجرةَ، ثم إلى أوطاس، ثم إلى ذات عِرق، ثم إلى بستان بني عامر، ثم إلى مكة، فمن عدل من النِّبَاج فإلى النَّقرة(٧٥).

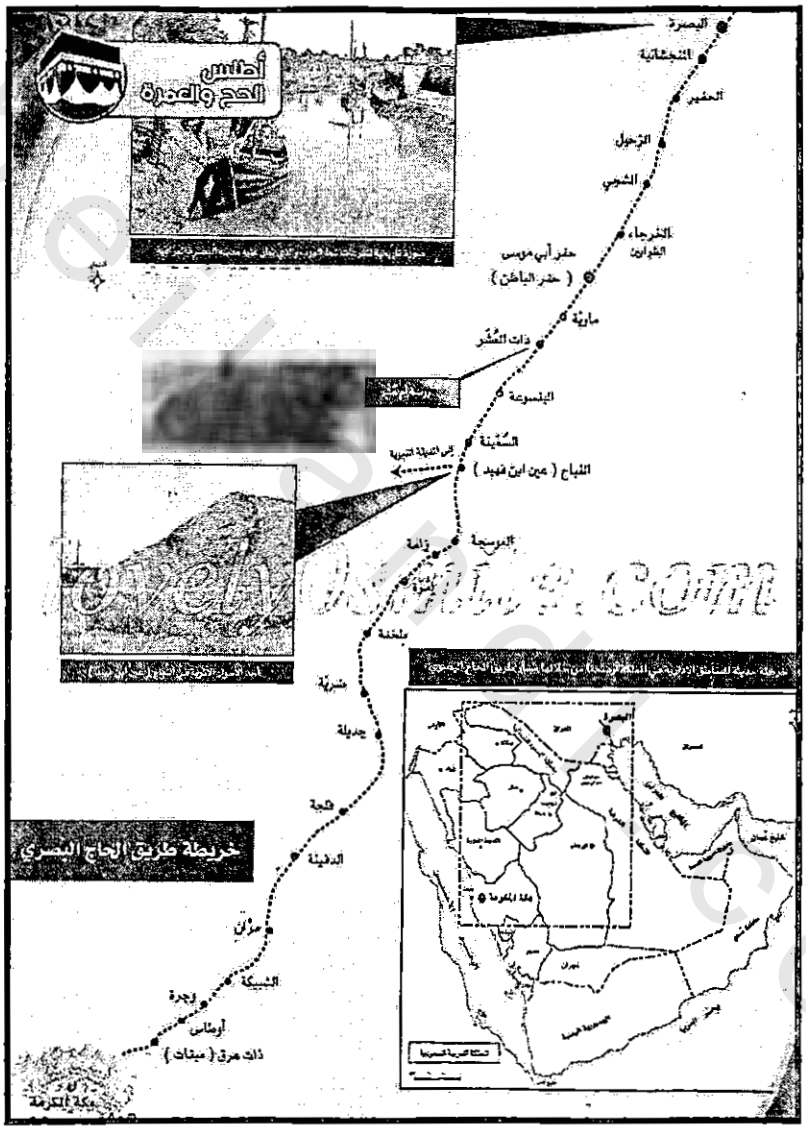

شكل (٤) طريق البصرة – مكة المكرمة .

75 – أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله المعروف بابن خرداذبة (المتوفى: نحو ٢٨٠هـ) ، المسالك والممالك ، دار صادر أفست ليدن، بيروت ، ١٨٨٩ م ، ص ٨٠ وما تلاها .

ويلتقي طريق البصرة مع طريق الكوفة في ذات عرق ويلتقي الطريقان ايضا في معدن النقرة الذي يرتبط في هذه المحطة منطلقا من النباج.

ويلاحظ في كتابات الجغرافيين المسلمين قلة المعلومات التفصيلية عن طريق البصرة ولعل سبب ذلك ان معظمهم عاش في القرن الثالث الهجري وهي الفترة التي كان التركيز فيها على طريق الكوفة اكثر من طريق البصرة ، ومع ذلك لم يكن هذا الطريق بمنأى عن اهتمام الخلفاء المسلمين.

اما آثار الطريق فنشاهدها إلى اليوم في عدد من المواقع ففي الاسياج (عين ابن فهيد)(٧٦)، حيث توجد اطلال قصر كبير مبني بالحجارة وله بقايا عقود نصف دائرية وغرف الجلوس وبالقرب من اثار العيون والقنوات القديمة والبرك السدود وفي ضرية(٧٧) لا تزال اثار البلدة

---

76 – الأسياح (النّباج): زاد من شهرتها أنها كانت محطة هامة من محطات طريق الحاج البصري إلى مكة المكرمة، والمدينة النبوية؛ ومنها يفترق الطريقان الرئيسان إلى مكة، والمدينة، حيث كانت (النّباج) ماء ترده القوافل، ثم اندثرت حتى ازدهرت مرة أخرى في عهد سلطان مارد، وبعد مقتل سلطان مارد اندثرت مرة ثالثة، حتى أعاد إحياءها (محمد الفهيد، من قبيلة عتيبة) في بداية القرن الثالث عشر الهجري، وتحديداً في العام ١٢٠١هـ؛ لذلك تسمى عين ابن فهيد، وهذه الصورة تمثل سد الأسياح، (النّباج) التقطتها عام ١٤٢٥هـ، والذي كان الحاج البصري يتوقف عندها؛ للتزود بالمياه، وبعض الحوائج.

77 – ضرية مدينة سعودية في منطقة القصيم الآن ، تقع على بعد ١٥٠ كيلو متر جنوبا من الرس ويبلغ عدد سكانها ٢٥،٠٠٠ نسمة وسميت ضرية بهذا الاسم نسبة إلى ضرية بنت ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، وفيها كان حمى ضرية الذي اختاره عمر بن الخطاب حميً لإبل الدولة الإسلامية ثم صارت له شهرة أكثر لمرور طرق الحج عبره من العراق وهي مركز الخلافة إلى الحرمين الشريفين، قال حمد الجاسر : حمى ضرية ويسمى أيضاً حمى الشّرَف، وهو أشرف الأحماء وأسيرها ذكراً، وكان حمى كليب بن ربيعة وبه كانت ترعى إبل

القديمة باقية لليوم بالإضافة للعيون والبرك وتشاهد اثار الاعلام (الرجوم) المتراكمة على امتداد الطريق خاصة في المنـــاطق الـــسهلية المـــستوية ويلاحظ ان بعض محطات الطريق استمر فيها او بالقرب منها الاستيطان الحضاري بسبب توفر المياه والمناطق الرعوية كما ان بعض المحطات اختفت معالمها تحت الكثبان الرملية.

ومن المحطات المهمة على طريق البصرة بركة الخرابة الواقعـــة عنـــد التقاء الطريق مع طريق الكوفة بالقرب من ذات عرق وهي عبارة عـــن بركة دائرية مدرجة من اعلاها الى اسفلها وتجاورها بركة مربعة مدرجة ايضا بينهما على مستوى سطح الارض غرفة للمراقبة مقببة ولها ابواب ذات عقود نصف دائرية ويمر من تحت مستوى الغرفة قناتـــا تـــصريف للمياه من البركة المربعة (المصفاة) الى البركة الدائرية. وتصل الميـــاه الى البركة بواسطة قناة أرضية مسقوفة تمتد من وادي العقيق لمسافة ١٥ كيلا تقريبا وبالقرب من هذه النقطة توجد بركة العقيق الواقعة في محطة غمرة المشهورة ، ولا نستبعد ان بركة الخرابة كانت تخـــدم المـــسافرين القادمين من البصرة والكوفة علي حد سواء. ويصل طول طريق البصرة مكة حوالي ١٢٠٠ كيلا ولا تزال بعض اسماء محطاته القديمة محتفظـــة باسمائها حتى يومنا هذا ومن هذه المواقع حفر ابي موسى فـــي موضـــع

الملوك. ويقع هذا الحمى في كبد نجد غرب إقليم السر وجنوب القصيم وشمال العرض، يمر طريق الرياض – الحجاز (القديم) في طرفه الجنوبي بعد مجاوزة قرية القاعية التي تبعد عن بلدة الدوادمي ٩٥ كيلاً إلى قرب عفيف، ويخترق الطريق المتوجه من عفيف إلى القصيم وسطه.

حفر البـــاطن الان والعوســـجة (الان العوســـجية) وطخفـــة وضـــرية والسفينة([٧٨]).

ثانياً : طريق الكوفة مكة المكرمة :

وهو ما أصطلح على تسميته بدرب زبيدة (زوجة الخليفة العباسي هارون الرشيد) فيبلغ طوله حوالي ١٤٠٠ كم، وهو يمر بمناطق مختلفـــة فـــي طبيعتها متباينة في تضاريسها فتارة نراه مستوياً على أرض رمليـــة أو طينية، وتارة آخرى منحوتاً وسط الصخور في المناطق الجبلية، ومـــره نراه موسعاً وخالياً من العوائق الخطرة في المناطق الوعرة. وطبقاً لمـــا ورد عن علماء الجغرافيا المسلمين الأوائل فإنه يوجد على طول الطريق من الكوفة إلى مكة المكرمة حوالي أربع وخمسين محطة رئيسية، كمـــا توجد محطات أخرى صغيرة فيما بينها. وكانت كافة المحطات الكبيـــرة منها والصغيرة على حد سواء مزودة بمصادر المياة حيث أمنت بـــشبكة على درجة كبيرة من الإتقان تتكون من : برك المياة وتشمل الخزانـــات والأحواض. والآبار على اختلاف أنواعها والقنوات. والسدود.

فقد كشفت لنا الأبحاث الأثرية التي تمت على هذا الطريق عما يقرب من خمسين بركة للمياه وهو تقريباً نفس العدد الذي ذكره علماء الجغرافيـــا المسلمون الأوائل، وقد وجد ما يزيد على اربعين من هذه البرك في داخل أراضي المملكة العربية السعودية وحدها، منها المستديرة، والمـــستطيلة، وكذلك المربعة. وطريق الكوفة مكة لا يستبعد ان يكون معروفـــا قبـــل العصر الاسلامي ، حيث كانت الحيرة عاصمة المناذرة بالقرب من

---

78 – عبد العزيز صالح ، تاريخ شبه الجزيرة العربية ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٩٢ ، ص ١٥٢ وما يليها .

الموقع الذي قامت فيه الكوفة فيما بعد سنة ١٤هـ وربما كانت القوافل التجارية من مكة والمدينة تتجه الى الحيرة عبر هذا الطريق ، وكانت توجد على الطريق مناهل للمياه قبل الاسلام توقف في بعضها الجيش الاسلامي بقيادة سعد بن ابي وقاص قبل دخوله العراق.

غير ان الطريق انتظم استخدامه بعد فتح العراق وانتشار الاسلام في المشرق الاسلامي فتحولت مناهل المياه وأماكن الرعي والتعدين على الطريق الى محطات رئيسية وبدأ الطريق يزدهر بالتدريج منذ عصر الخلافة الراشدة وحتى العصر الاموي وبانتقال مركز الخلافة من الشام الى العراق في العصر العباسي اصبح الطريق حلقة اتصال مهمة بين عاصمة الخلافة في بغداد والحرمين الشريفين وبقية انحاء الجزيرة العربية وحتى اليمن ، وأعطى خلفاء بني العباس جل اهتمامهم بتأمين طرق المواصلات وبالأخص طريق الكوفة من مكة كما كان للأمراء والوزراء والقادة والوجهاء اصلاحات اخرى كثيرة على الطريق.

وفي ضوء المعلومات الواردة في المصادر التاريخية والجغرافية نجد ان طريق الحج العراقي (درب زبيدة) خُطط مساره بطريقة علمية وهندسية متميزة ، حيث حددت اتجاهاته واقيمت على امتداده المحطات والمنازل والاستراحات ورصفت ارضية الطريق بالحجارة في المناطق الرملية والموحلة ونظف الطريق من الجلاميد الصخرية والعوائق في المناطق الوعرة والصخرية وزود الطريق بالمرافق الضرورية من منشآت مائية كالسدود والآبار والبرك وأقيمت على امتداد الطريق العلامات التي توضح مسار الطريق كالأعلام والمنارات والأميال (احجار المسافة) والصوى والمشاعل والمواقيد ليهتدي بها المسافرون ليلا ونهارا.

واوردت المصادر الجغرافية المبكرة اشارات عديدة الى المواقع والمرافق التي تولى انشاءها بعض الخلفاء والأمراء والوزراء والأعيان وتذكر المصادر ان الخلفاء والأمراء كان لهم مبان وقصور خاصة بهم ينزلونها عند زيارتهم الاماكن المقدسة .

ومن ابرز الخلفاء العباسيين الذين سافروا على هذا الطريق ابو جعفر المنصور والمهدي وهارون الرشيد وقد أدى الرشيد فريضة الحج تسع مرات طوال فترة خلافته ١٧٠ هـ الى ١٩٣هـ - ٧٨٦ الى ٨٠٩م، بهذا يكون قد قطع في رحلاته بين بغداد ومكة ما يقارب من ٥٦٩٨ ميلا «٦,٩٦٨٦ كيلا» وكان في بعضها يحج ماشيا وكان لطريق الحج من الكوفة الى مكة عمال (ولاة) يشرفون على الطريق ويتعهدونه بالصيانة والاعمار اولا بأول. ورصد الجغرافيون المسلمون سبعا وعشرين محطة رئيسية على الطريق من الكوفة الى مكة وسبعا وعشرين محطة ثانوية تسمى كل واحدة منها متعشى وهي محطة استراحة تقام بين كل محطتين رئيستين هذا خلاف المرافق الاخرى التي كانت تضاف علي امتداد الطريق. وكما هو واضح فى الشكل (٥) . تبدأ الرحلة إلى مكة ، بعد ان تقطع ثلاث مراحل من بغداد ، ثم تخرج من الكوفة تجاه الحجاز فتسير من منازل عامرة ومناهل قائمة فيها قصور لخلفاء بنى هشام [٧٩] . فأول هذه المنازل القادسية ثم المغيثية ثم الفرعا ثم واقصة ثم العقبة ثم القاع ثم

79- اليعقوبى ، كتاب البلدان ، ليدن ١٣٠٢هـ ، ص ٣٠٨ .

تسير بعد ذلك حتى تصل زبالة (وتعد زبالة قرية عامرة تشتهر بكثـرة آبارها ومياهها) [٨٠] . ثم تأخذ القافلة

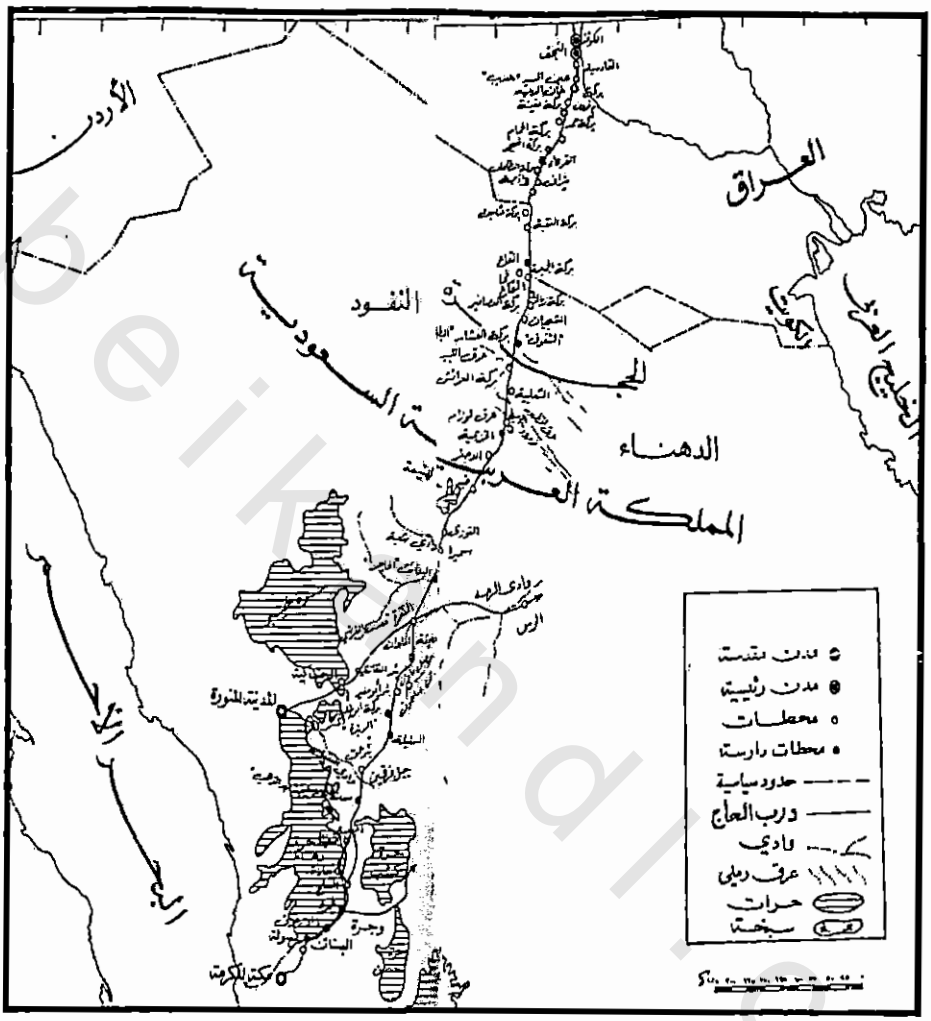

شكل (٥) درب الحج الكوفى (درب زبيدة) .

---

80 – إبراهيم بن إسحاق الحربى ، كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ، تحقيق / حمد الجاسر ، منشورات دار اليمامة ، ١٩٦٩م ، ص ٢٨٤ .

فى السير منها إلى الشقوق ثم بطان ثم الثعلبية([٨١]) (المدينة ذات الأسوار) ثم زرود([٨٢]) ثم فيد ([٨٣]) التى تقع على منتصف الطريق بين مكة وبغداد

---

[81] – قال ابن بطوطةعنها : بعد خروجه من زرود قاصداً العراق بعد أدائه لفريضة الحج في تلك السنة: ثم رحلنا ونزلنا الثعلبية، ولها حصن خرب بإزائه مصنع هائل ينزل إليه في درج، وبه من ماء المطر ما يعم الركب. ويجتمع من العرب بهذا الموضع جمع عظيم فيبيعون الجمال والغنم والسمن واللبن. ومن هذا الموضع إلى الكوفة ثلاث مراحل.

[82] – من أشهر منازل العرب في الجاهلية والإسلام واسمها باق إلى اليوم لم يتغير منه حرف واحد وهي من مناهل العرب القديمة ، كما أنها من أشهر منازل الحاج العراقي بعد الثعلبية وقبل الأجفُر للمتجه إلى مكة. قال الإمام الحربي في كتاب المناسك : وزرود قبل الخزيمية بميل ونصف ، وهي لبني أسد وبني نهشل أيضا وفيها من الآبار العامرة والمندفنة نحو من عشرين بئرا ، ماؤها غليظ وبها قصر وحوانيت وبركة ماء وحوض على بئر كبيرة . وفي خبر نزول جيش القادسية بزرود ثلاثة أشهر في شتاء العام الرابع عشر من الهجرة ورد إنَّ رؤساء بني حنظلة قالوا لقومهم قد نزل بكم الناس وهم قبائل الحجاز ، واليمن ، وأهل العالية . وقد لزمكم قراها فشاطروها الرسْل ففعلوا فمن كانت له لقحتان فضَّ إحداهما عليهم ، ومن كان له أكثر فعلى حساب ذلك فقروهم شتوة بزرود ، كان سعد لما وجهه عمر لحرب العراق خرج فنزل فيد ، فأقام بها شهراً ثم كتب له عمر أن يرتفع إلى زرود فنزل الناس معه في أول الشتاء بزرود وتفرقوا فيما حولها .. وأقام سعد ينتظر اجتماع الناس ثم كتب عمر إلى سعد : أن سر حتى تنزل شراف ... ومن بين من قدموا على سعد بها هلال بن عُلفَه من تيم الرباب وهو قاتل رستم قائد جيش الفرس في القادسية.

[83] – "(فيد)– بفتح الفاء، وإسكان الياء المثناة التحتية ، والدال المهملة – من أقدم القرى وأشهرها ، ولقدمها تمحل ابن الكلبي والزجاجي أنها سميت بفائد ، أو (فيد) بن حام من بني عمليق". وكانت فيد من بلاد بني نبهان من طيء ومعهم أخلاط غيرهم في القرية ، ولكونها في بلاد بني نبهان أقطعها الرسول صلى الله عليه وسلم زيد الخيل النبهاني، وكتب له كتاباً بذلك ، وقال له : (قد أقطعتك فيداً ، وما حازت) ، وورد في(تاريخ الطبري): "وأقطعه فيداً وأرضين معه" ، وبقي بنو نبهان هم أهلها إلى القرن الخامس الهجري ، وقد يمتد زمنهم إلى ما بعد هذا . وقد اثبت علماء الآثار في عصرنا الحاضر أـن (فيداً) يعود تاريخ إلى ما قبل الإسلام ، فقد جاء في كتاب (مقدمة عن آثار المملكة) ما نصه : " فيد تقع على بعد ١٢٠ كم جنوب شرقي حائل ، وبها ما يسمى خرائب قصر خراش، الذي يعتقد أن يكون موقع مدينة

، وفيها كان ينزل عمال طريق مكة ، وكان الحجاج يودعون مـا ثقـل عليهم من أزوادهم وأمتعتهم عند أهلها ، فإذا عادوا أخذوا ما أودعوه بعد أن يدفعوا لهم شيئاً من ذلك ، وكان أهلها يتعاونون مع الحجاج ويقدمون لهم كثيراً من وسائل الراحة والإغاثة ، خاصة وأن هذا المكـان منفـرد منقطع عن العمران [٨٤] . وتتجه القافلة من فيد وتواصل سيرها إلى توز وهى على مسافة ٣٠٨ ميلاً من الكوفة ، ثم تتجه القافلـة إلـى سـميرا

قديمة ، تعود إلى ما قبل الإسلام.". وفي عام ٥٨٠هـ مر الرحالة ابن جبير في فيد بعد أداء مناسك الحج ، ووصف فيداً قائلاً : " واصبحنا على فيد يوم الأحد (الخامس عشر من المحرم)، وهي حصن كبير مبرج مشرف في بسيط من الأرض، يمتد حوله ربض يطيف به سور عتيق البنيان، وهو معمور بسكان الأعراب ، ينتعشون مع الحاج في التجارات والمبايعات، وغير ذلك من المرافق ، وهناك يترك الحاج بعضهم زادهم إعداداً للإرمال من الزاد عند انصرافهم ، ولهم بها معارف يتركون أزودتهم عنده، وهذا نصف الطريق من بغداد إلى مكة على المدينة ، شرفها الله ، أو أقل يسيراً ، ومنها إلى الكوفة أثناء عشر يوماً في طريق سهلة طيبة ،والمياه فيها بحمد الله موجودة في مصانع كثيرة" . وفي عام ٧٢٧هـ زار ابن بطوطة الرحالة المشهور فيداً إثر خروجه من مكة المكرمة، برفقة أمير ركب العراق: البهلوان محمد الحويج، وهو من أهل الموصل .. قال في رحلته: " ثم أسرينا ليلاً ، وصبحنا بحصن فيد، وهو حصن كبير في بسيط من الأرض، يدور به سور ، وعليه ربض ، وساكنوه عرب يتعيشون مع الحاج في البيع والتجارة، ، وهناك يترك الحاج بعض أزودهم حين وصولهم من العراق إلى مكة – شرفها الله تعالى – فإذا عادوا وجدوه، وهو نصف الطريق من مكة إلى بغداد، ومنه إلى الكوفة مسيرة أثني عشر يوماً في طريق سهل، به المياه في المصانع . ومن عادة الركب أن يدخلوا هذا الموضع على تعبئة واهبة للحرب إرهاباً للعرب المجتمعين هنالك، وقطعاً لأطماعهم عن الركب ، وهناك لقينا أميري العرب، وهما : فياض وحيار ، وهما أبناء الأمير مهنا بن عيسى ، ومعهما من خيل العرب ورجالهم من لا يحصون كثرة، فظهر منهما المحافظة على الحاج ، والرجال ن والحوطة لهم ، وأتى العرب بالجمال والغنم ، فاشترى منهم الناس ما قدروا عليه".

[84] – موزل لويس ، طريق الحج العراقى القديم ، مجلة العرب ، السنة السابعة ، رمضان ، ١٣٩٢هـ ، الجزء الثالث ، ص ٢٠٣ .

فالحاجر ثم النقرة التى عندها مفرق الطريق إلى طريقين أحدهما يتجه إلى المدينة المنورة والثانى يتجه إلى مكة المكرمة [٨٥] .

وفى الأغلب الأعم يذهب الركب العراقى إلى مكة لتأدية فريضة الحج ثم يعطف بعد ذلك إلى المدينة المنورة ، لذلك فهو يأخذ فى السير من النقرة على طريق مكة إلى مغيثة ثم إلى الربزة ، ومنها يجتاز بعض المحطات الصغيرة إلى ذات عرق([٨٦]) ، وهى ميقات أهل العراق (فيتم عندها الإحرام) ثم يواصلون السير إلى بستان ابن عامر ، ومنه إلى مكة المكرمة [٨٧] .

وهناك طرق فرعية اخرى منها طريق معدن النقرة/ المدينة وبلغ امتداده حوالي ١٥٦ ميلا «٢٦٥ كيلا» تقريبا. ويوجد طريق فرعي اخر تسلكه القوافل من معدن بني سليم «مهد الذهب» عبر الحافة الشرقية لحرة رهاط مرورا على صفينة وحاذة ثم المسلح ويلتقي طريق البصرة مع طريق الكوفة في معدن النقرة حيث يصل اليه من النباج او يتجه محاذيا له حيث يلتقي الطريقان في ذات عرق.

---

85 – اليعقوبى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣١١ .

86 – ذات عرق: مكان بالبادية قرب عقيق الطائف، سمي بذلك لعرق فيه والعرق هو الجبل ويقولون إنه منتهى جبال تهامة يفصل بين جبال تهامة ونجد وهو ميقات أهل العراق ومن وراءهم من أهل المشرق كأهل خراسان وغيرهم. وهي مندثرة اليوم ويحرم الحجاج الذين يأتون في السابق على الإبل من الضريبة التي يقال لها اليوم – الخريبات – أما اليوم فالحجاج يأتون بسياراتهم ويمرون إما على بذي الحليفةأو السيل فيحرمون من أحدهما وتبعد عن مكة ٧٠ كم.

87 – عبد القادر بن محمد الجزيرى ، درر الفوائد المنظمة فى أخبار الحجاج وطرق مكة المعظمة ، المطبعة السلفية بالقاهرة ، ص ٤٦٧ .

وتجدر الإشارة إلى أن الطريق من العراق إلى مكة لم يكن سهلاً وآمناً من الأخطار ، ولكن كان هناك العديد من المخاطر مثل "حركة القرامطة" الناتجة عن الحنق من بنى العباس ، حيث الخروج على قوافل الحجيج والفتك بهم ، وكان خروج القرامطة وفتكهم بقوافل الحاج العراقى وحصولهم على ضريبة سنوية من الحجاج والخلافة بادرة سيئة ، سارت على نهجها كثير من القبائل العربية المقيمة على طول الطريق ، سواء من حيث إنزال الكوارث بالحجاج أو مطالبتهم بدفع الضرائب والمكوس ، فقد حدث أن قبيلة بنى هلال ، وهى من القبائل الكبرى فى الجزيرة العربية اعترضت ركب الحجيج سنة ٣٦١هـ ونهبته وقتلت عدداً كبيراً من الحجاج[٨٨].

وكان الحجاج فى أوقات الأمن والسلامة من خطر القبائل يعانون الشدائد المخيفة بسبب عوامل الطبيعة المختلفة التى تودى بحياة الآلاف من الحجاج ، مثل هبوب الرياح العاتية ولاسيما فى أشهر الصيف ففى سنة ٣٩٧هـ ثارت على الحجاج فى الثعلبية ريح سوداء أظلم لها الجو[٨٩] ،

---

88 – عبد الرحمن بن على بن محمد ابن الجوزى ، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، الجزء السابع ، ص ٥٧ .

89 – ويبدو أنه قد تعددت النوائب لدى الحجيج فى الثعلبية ففى سنة ٣٠٣هجرية عاد الحُجّاج وقد لقوا من العطش والخوف شدّة، وخرج جماعة من العرب على أبي حامد ورقاء بن محمّد المرتّب على الثعلبيّة لحفظ الطريق، فقاتلهم، وظفر بهم، وقتل جماعة منهم، وأسر الباقين وحملهم إلى بغداد، فأمر المقتدر بتسليمهم إلى صاحب الشُرطة ليحبسهم، فثارت بهم العامة فقتلوهم وألقوهم في دجلة. وفي سنة ٣٨٦هجري عاد الحجاج من الثعلبية دون ان يحجوا ، ولم يحج من العراق والشام أحد، وسبب عودهم أن الأصيفر، أمير العرب، اعترضهم وقال: إن الدراهم التي أرسلها السلطان عام أول كانت نقرة مطلية، وأريد العوض؛ فطالت المخاطبة والمراسلة وضاق الوقت على الحجاج فرجعوا .

فلم ير الحجاج بعضهم بعضاً ، وأصابهم لذلك عطش شديد فاضطروا تحت وطأة هذه الظروف إلى العودة دون أن يحجوا ، ثم تكررت هذه الظروف مرات عدة ، ففى ذى الحجة سنة ٤٠٢هـ هاجت ريح سوداء فى زبالة ، وفقدوا الماء فهلك منهم خلق كثير وبلغت المزادة من الماء مائة درهم ، ولم يستطيع من بقى منهم العودة إلا تحت خفارة بنى خفاجة [٩٠] . ومن مثل هذه الحوادث أن الحجاج العراقيين نزلوا بواد بعد نخلة سنة ٤٨٩هـ ، فأتاهم سيل عظيم فأغرق أكثرهم ، ونجا من تعلق بالجبال وذهب المال والدواب والأزواد وغير ذلك [٩١] .

ورغم ما سبق ، فقد اهتم الخلفاء بالطرق التى كان يسلكها الحجاج لأغراض الدعاية السياسية ، فعملوا على إزالة العقبات ووضع العلامات وحفر الآبار وإقامة مصانع المياه ، وصرف نفقات باهظة للقبائل المتربصة بالحجيج على طول الطريق إلى مكة المكرمة . فاهتمت الدولة العباسية بذلك الأمر ،حتى أن أمر هذا الطريق كان فى بداية القرن الرابع الهجرى ولاية تضاف إلى امير الكوفة ، وكان يمثل هذا الأمير فى ولاية طريق الحج عمال يقيمون فى بعض المراكز الهامة على طول الطريق [٩٢] . بل كانت بعض الشخصيات من الأمراء وغيرهم يسهمون فى هذا الميدان الخيرى ، فقد حمل بدر بن حسنوية بن الحسين أمير الجبل([٩٣])

---

90 – نفس المرجع السابق ، ص ٢٥٧ .

91– نفس المرجع السابق ، الجزء التاسع ، ص ٩٧ .

92 – اليعقوبى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣١٢ .

93 – أبو النجم الكردي، كان من خيار الملوك بناحية الدينور وهمدان، وله سياسة وصدقة كثيرة، كناه القادر بأبي النجم، ولقبه ناصر الدولة، وعقد له لواء وأنفذه إليه، وكانت معاملاته وبلاده في غاية الأمن والطيبة، بحيث إذا أعيى جمل أحد من المسافرين أو دابته عن حمله يتركها بما عليها في البرية فيرد عليه، ولو بعد حين لا ينقص منه شيء. ولما عاثت أمراؤه

ابتداء من سنة ٣٨٥هـ إلى الأصيفر الأعرابى مبلغ خمسة آلاف دينار عوضاً عما كان يأخذه من الحجاج ، ومع زيادة نفوذ السلاجقة فى الدولة العباسية أخذ الوزير التقى نظام الملك([٩٤]) على عاتقه الاهتمام بإعادة

في الأرض فساداً عمل لهم ضيافة حسنة، فقدمها إليهم ولم يأتهم بخبز، فجلسوا ينتظرون الخبز، فلما استبطاؤه سألوا عنه فقال لهم: إذا كنتم تهلكون الحرث وتظلمون الزراع، فمن أين تؤتون بخبز؟ ثم قال لهم: لا أسمع بأحد أفسد في الأرض بعد اليوم إلا أرقت دمه. واجتاز مرة في بعض أسفاره برجل قد حمل حزمة حطب وهو يبكي فقال له: مالك تبكي؟ فقال: إني كان معي رغيفان أريد أن أقوتهما فأخذهما مني بعض الجند. فقال له: أتعرفه إذا رأيته؟ قال: نعم. فوقف به في موضع مضيق حتى مر عليه ذلك الرجل الذي أخذ رغيفيه، قال: هذا هو، فأمر به أن ينزل عن فرسه وأن يحمل حزمته التي احتطبها حتى يبلغ بها إلى المدينة، فأراد أن يفتدي من ذلك بمال جزيل فلم يقبل منه، حتى تأدب به الجيش كلهم. وكان يصرف كل جمعة عشرين ألف درهم على الفقراء والأرامل، وفي كل شهر عشرين ألف درهم في تكفين الموتى، ويصرف في كل سنة ألف دينار إلى عشرين نفساً يحجون عن والدته، وعن عضد الدولة، لأنه كان السبب في تمليكه، وثلاثة آلاف دينار في كل سنة إلى الحدادين والحذاءين لأجل المنقطعين من همذان وبغداد، يصلحون الأحذية ونعال دوابهم، ويصرف في كل سنة مائة ألف دينار إلى الحرمين صدقة على المجاورين، وعمارة المصانع، وإصلاح المياه في طريق الحجاز، وحفر الآبار وما اجتاز في طريقه وأسفاره بماء إلا بنى عنده قرية، وعمر في أيامه من المساجد والخانات ما ينيف على ألفي مسجد وخان، هذا كله خارجاً عما يصرف من ديوانه من الجرايات والنفقات والصدقات، والبر والصلات، على أصناف الناس من الفقهاء والقضاة والمؤذنين والأشراف، والشهود والفقراء، والمساكين والأيتام والأرامل. وكان مع هذا كثير الصلاة والذكر، وكان له من الدواب المربوطة في سبيل الله وفي الحشر ما ينيف على عشرين ألف دابة. توفي في هذه السنة رحمه الله عن نيف وثمانين سنة، ودفن في مشهد علي، وترك من الأموال أربعة عشر ألف بدرة، ونيفاً وأربعين بدرة، والبدرة عشرة آلاف، رحمه الله.

[94] – هو قوام الدين أبو علي الحسين بن علي بن إسحاق بن العباس الطوسي الملقب بـ خواجة بزك أي نظام الملك ، ولد نظام الملك سنة ٤٠٨ هجري بنوقان إحدى مدينتي طوس، توفيت أمه وهو رضيع، كانت من عائلة آل حميد الدين الطوسي الذين كان أكثرهم وزراء. وقد عُني به أبوه فتعلم العربية وحفظ القرآن الكريم وهو في سن الحادية عشر وألم بالفقه على

تيسير الحج إلى مكة ، وكان قد انقطع منذ سنوات عديدة ، فعمل على فتح طريق الحج العراقي وقام بتعميره فاستقام لذلك أمر الحجيج.
وأخيراً وبسبب الخلل الامني توقف الحجاج عن استخدام الطريق إلا عند توفر الحماية العسكرية وفي مواسم الحج فقط على عكس العصور

مذهب الإمام الشافعي وسمع الحديث و درس الآداب التي تتعلق بأمور الحكم. في مطلع شبابه اتصل بخدمة علي بن شاذان والي مدينة بلخ وعمل كاتبا له وقصد داوود بن ميكائيل السلجوقي والد السلطان ألب أرسلان فظهر لداوود منه النصح والموهبة فسلمه إلى ولده ألب أرسلان وقال له: <<اتخذه والدا ولا تخالفه فيما يشير به>> . كان لنظام الملك صديقي دراسة هما: حسن الصباح وعمر الخيام. وأقسم جميعهم على مساعدة بعضهم في حال نجاح أحدهم في حياته وتوليه لمنصب رفيع. كان النجاح الأول من نصيب نظام الملك، الذي احتل منصبا رفيعا يتمثل في وزير السلطان السلجوقي. لم يَنْسَ نظام الملك قسمه الذي قطعه مع أصحابه، وعليه فقد أمر بصرف راتب ثابت للشاعر عمر الخيام بينما أسند لحسن بن صباح منصبا رفيعا في الدولة. لكن، حدث ما لم يكن بالحسبان. فقد تمكن حسن الصباح من منافسة نظام الملك في السلطة مما اضطر الأخير لطرده من السلطة عن طريق مؤامرة حيكت من قبله. وحينها اقسم بن صباح على الانتقام من صديقه. ومن هنا تبدأ حلقة من الصراع بينهما، انتهت آخر فصولها باغتيال الوزير نظام الملك بنهاوند . لم يكن وزيرًا لامعًا وسياسيًّا ماهرًا فحسب؛ بل كان داعيًا للعلم والأدب محبًّا لهما؛ أنشأ المدارس المعروفة باسمه «المدارس النظامية» ، وأجرى لها الرواتب، وجذب إليها كبار الفقهاء والمحدِّثين، وفي مقدّمتهم حُجَّة الإسلام «أبو حامد الغزالي». اغتاله الإسماعيليون عام ١٠٩٢م. من مؤلفاته : سياست نامه أو سيَر الملوك. تحدث فيه عن تنظيم الحكم وعن ضرورة قيام العدل، وتنظيم أمور الدولة والاستقطاع، وتنظيم الإدارة والجيش، وتاريخ العلاقة بين السلطة المركزية في خراسان والقرامطة والخُرَّمية وغيرها من الحركات الباطنية. عن : محمد على الصلابى ، دولة السلاجقة: وبروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي ، الطبعة الأولى ٢٠٠٦، دار المعرفة ، بيروت ، ٢٠٠٦م ، صفحات مختلفة.

المبكرة عندما كان الطريق يستخدم على نطاق واسع بدون حماية امنية. غير ان تعطل الطريق بشكل كبير حدث بعد سقوط بغداد على يد المغول سنة ٦٥٦هـ /١٢٥٨م ، ولم يعد الطريق مستخدما إلا في فترات متقطعة كما أن اجزاء الطريق من معدن النقرة وحتى مكة انقطع استخدامه نهائيا منذ اواخر القرن الرابع الهجري ، وبالتدريج اندثرت معظم محطات الطريق وتقلصت المحطات والمنازل إلى أطلال[٩٥] .

---

95 – أبو الحسن على بن أبى الكرم بن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، الجزء الثامن ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٦٧م ، ص ١٦٤ .

obeikandl.com